نظرة نقدية

حد الامكان

لعل أشد مايكتنف طريق العلم ؛ ويقف حاجزا منيعا بين الحقيقة وانكشافها فيعطل السير الطبيعي للمعرفة ، ويؤخر الانسانية عن التقدم فى سبيل كشف المجاهل المحيطة بجميع دقائق الكون ، انما هو حصر الامكان فى دائرة محدودة قوامها المعارف المتفق عليها : سواء أكانت إلى الحقائق العلمية أقرب أم بالأوهام أمس واملك ، بحيث يعتبر كل خروج عن هذه الدائرة عبثا محضا وضلالا كبيراً

ولقد مر العلم فى جميع أدواره بهذه العقبة الكئود : ولاقى رجاله من العامة بل ومن زملائهم ممن لايقلون عنهم فى المكانة العلمية ، أشد مايلقاه العالم من الجاهل والحق من الباطل : فمنذ العهد الأول للتفكير العلمى ، ومنذ بدأ فريق من الناس ينظرون بأدمغتهم إلى حركة الشمس والأرض ، ويجرءون على القول بان الثانية هى التى تدور حول الأولى إلى أيامنا هذه لم تمر نظرية من النظريات العلمية : أو استكشاف بجهول من المجاهيل الكونية أو قوة من القوى الخفية بدون أن تصدم : لأول وهلة ، بانها خارجة عن حدود الممكنات ، وكل ما كان كذلك لا يمكن قبوله ولا بحثه بحال من الأحوال . ولولا أن الحقيقة تحمل بين جنبيها جراثيم بقائها والعناصر التى تكفل لها مقاومة كل مايعترضها من عنت وانكار لما كان العلم حتى اليوم إلا مجموعة رثة من الأوهام والأضاليل لاسيما وأن علمنا ان هذه المعارضة لم تكن تقتصر على العامة واشباه العامة فقط بل كانت تتعداهم إلى بعض العقول الكبيرة أمثال افلاطون وارخميدس وبطليموس أيام ان قالت مدرسة فيثاغورس بدورة الأرض حول الشمس . ويحدثنا أيضا الاستاذ كاميل فلمريون عن رجال كانوا يعتبرون من أئمة العلم فى عصرهم لم يرفعهم الخلق العلمى عن أن يمثلوا أدوارا من هذا الجمود . ويكفى أن نذكر أن أحد هؤلاء كان ينكر حقيقة الفونوغراف ويصر حعلى رءوس الاشهاد من أعضاء المجمع

العلمي الفرنسي انه درس هذه المسألة درساً مدققاً ستة أشهر وانه يرى أن المسألة مسألة تلبيس وانه لايعقل ان المعدن يستطيع محاكاة الجهاز الانساني الشريف وان عالماً آخر من كبار المستكشفين انبرى للافوازييه يخطئه فيما ذهب اليه من القول بعدم عنصرية الماء والهواء والنار والتراب ويقول في ذلك « ليس من المحتمل أن توضع هذه العناصر التي عرفت منذ ألفي سنة بانها بسيطة في عداد الاجسام المركبة ، وليس من المحتمل أيضاً أن تكون حقيقة تلك الوسائل التي تقدم لنا لتحليل الهواء والماء . . . .

فحتى في أنصع أدوار العلم وفي اكبر العقول التي أعطيت مقاليد السموات والأرض لتظهر لنا عيونها وتكشف لنا عن أسرارها لم يستطع التحرر من قيد حصر الامكان ولم يقدر أسلوب البحث العلمي على الافلات من تأثير بعض المعارف المتفق عليها

وانها لظاهرة جلية وخطيرة من تاريخ العلم لايصح أن نغفل عنها . خصوصاً ونحن نجهد أنفسنا في تمكين الأسلوب العقلي من النفوس ونسعى السعي كله في تربية العقول الناشئة عن التحرر من جميع التقاليد الموروثة وان دراستها خير مايربي العقول على الأدب العلمي ويجعلها متحفظة في قبول أو نفي مايرد عليها من الآراء

فاني أحسب انه ليس اكثر سذاجة . بعد أن نرى أي حقائق اليوم الملموسة والبداهة التي لايمكن النزاع فيها كانت محل شك بل انكار من بعض أئمة العلم — أقول ليس اكثر سذاجة من الادعاء بان رأيا من الآراء لايمكن أن يكون حقا . ولماذا ؟ لانه يتعارض مع كيت وكيت من الحقائق العلمية أو يتنافى مع ناموس كذا من النواميس الطبيعية والاستناد إلى النواميس الطبيعية وجه جديد من وجوه حصر الامكان . وليت شعري أيمكن ان تكون تلك النواميس جامدة ثابتة لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وهي ليست الا قواعد وضعها رجال العلم بناء على المشاهدات الكونية وما استنبطوه لها من العلل الأولية . وما الذي يمنع ان يكون بتلك النواميس نقصا أو انحرافا أو قصوراً يظهره لنا البحث والنظر المجردان . ليس ثمت ما يمنع ذلك كما اعتقد اذن أيحق لها ان تحول بيننا وبين الحقيقة . ولسنا نجرم مطلقا انها هي الحق المطلق

فالثقة المطلقة بالنظريات العلمية أو النواميس الطبيعية أو الاوهام الفطرية أو العقائد الدينية ؛ كل ذلك سواء اذا اعتبرنا أنه يؤدى الى نتيجة واحدة وهى حصر الامكان. وهذا يؤدى الى ما ذكرته آنفا وهو تعطيل السير الطبيعى للمعرفة ، مع مراعاة القوة الجرثومية الموجودة فى الحقيقة (النسبية طبعا)

ان هذا القيد الثقيل الذى لم يفارق العلم فى أى عصر من عصوره انما هو نتيجة الايمان الراسخ ؛ أيا كان هذا الايمان ، فهل من العدل أن لا نذكره الا حينما نذكر الاديان فنحمل عليها بكل ما فى قلوبنا من غيظ وحنق وبكل ما فى نفوسنا من تقديس للعلم وغيره على الاسلوب العقلى ، كأن الاديان هى كل ما هنالك من جناية على العلم صد عن سبيله ، وكأنما هى المادة الوحيدة التى صيغ منها ذلك القيد الثقيل

شيئا من النصفة والعدل . أى فرق بين رجل من رجال الدين حارب مذهب داروين مثلا لأنه يناقض ما رسخ فى نفسه من التعاليم التى تقضى بالخلق المستقل وبين كبير من رجال المجمع العلمى الفرنسى انبرى لما استكشفه لافوازيه من تحليل الماء والهواء منكراً أشد انكار أن هذه « العناصر! » عرفت منذ الفى سنة بأنها بسيطة ؟! كلاهما يستند الى عقيدة فى نفسه . فيضحى فى سبيلها البحث والنظر ؛ وكلاهما يحارب فى الواقع الترقى العلمى ، بل عندي أن مثل هذ الجمود العلمى أعظم خطراً وأكبر أثراً فى سبيل العلم

أنا لا أقول يجب أن ترفع الثقة بالمقررات العلمية رفعا باتا ؛ فهذا بلا ريب خطل كبير . ولكن الذى أقوله أنه لا يصح أن نكون كهانا وقساوسة فى تمسكنا بهذه المقررات بحيث نضع كل ما سواها مما يتنافى أو يتعارض معها فى دائرة المستحيلات . فانه من المسلم به أن جميع الحقائق التي نعرفها عن الكون ليست إلا حقائق نسبية وقد قرأت كلمة لبعض العلماء هى خير ما يقال فى هذا الفصل :

« ليس لأى عقل مهما كانت درجة اتساعه أن يضع حدودا للممكن وغير الممكن لأن الممكن لا ينتهي عند حد كالزمان والمكان ، ونحن وان كنا حددناه فى نظرياتنا فهو يتعداها فى كل لحظة ويسخر من ضيق عقولنا » . . . أما ما يقوله العاقل فهو أنه لا يوجد خطأ محض الا فى الامرين المتناقضين ولا حق محض الا فيما هو بدهى .

خد الامكان على هذا يتسع لجميع الآراء وانما البحث والنظر بالوسائل العلمية هو الذي يهدينا الى سواء السبيل ، و يبين لنا ما هو أحق بالاخذ مما يجب أن يهمل و ينبذ

ليست حرية الفكر هى فقط : الا يعترضك امرؤ بسوء فى رأى من الآراء ؛ أو يحجر عليك ذوو السلطة فى التصريح بمذهب من المذاهب ، فهذا لا يساوى فى الخطورة تحرير الفكر من تأثير بعض المعارف الموروثة أو المقررة بحيث تحصر الامكان فى دائرتها

« الحاجرى »

العصور ـ ليس لنا ان نرد على حضرة الكاتب بشىء الا ان نحيله الى ما كتبنا فى افتتاحية العصور من بحث قائم على آخر النظريات العلمية والفلسفية

اطلب من دار العصور للطبع والنشر
ومن جميع المكاتب المعروفة

أقوم بحث فى حقيقة الاشتراكية ومناقشة مبادئها